"عمومًا، لا شأن لنا"

دعاء بوجمعة - الجزائر

-"عموما، لا شأن لنا" قالت (رنيم) عبارتها المألوفة هذه محاولة إنهاءً ذلك الحوار العقيم الذي تخوضه صديقتاها في كلِّ مرة؛ بشأن الكَهل الذي أتى إلى الحي منذ سنين عديدة واتخذ من حطام بيتٍ مهجورٍ ملجأً له، أو كما تسميه (سلمى) "مجنون الحي"وتقسم كل مرةٍ على أنه مختلٌّ عقليًّا وأنه قد هرب من المصحة العقلية بينما تعارضها (عبير) بأنه سفاحٌ خطيرٌ قتل كل أهله وأضحى وحيدًا بعد خروجه من السجن. لا يقف الأمر عند روايتي كل من (سلمى وعبير) بل يتفنن كلُّ سكان الحي في تأليف الأساطير حوله يتوارثونها جيلًا عن جيل، لكن في الواقع؛ جميعهم يجهلون حقيقة هذا الأخير كونه لا يتحدث ولا يرد على أحد.

كانت (رنيم) فتاة في الثامنة عشرة من عمرها تُعرف في الحي بكونها ذكية وفطنةً جدًّا وكذلك بكونها الوحيدة التي لا تصدق تلك الخرافات التي يدعونها؛ لم تتقبَّل يومًا فكرة أن يكون ذلك الشخص مجنونًا أو سفاحًا؛ فكيف يمكن لمن يعرف طريق المسجد خمسَ مرات في اليوم مجنونًا وكيف يمكن لمن يطعم الطيور من فتات ما عنده شخصا سفاحًا؟!

حتى تلك الليلة الباردة الموحشة، كانت (رنيم) تحشر رأسها تحت وسادتِها لعلَّ صوت طقطقة أسنان ذلك الشيخ من شدةِ البرد يفلت قبضته عن ضميرها، لكنها لمْ تستطعْ التحمُّلَ أكثر، لقد كان الصوت يكاد يصمُّ الآذان أو على الأقلِّ آذان من لهم ضمير. انتفضت من فراشِها وَهَمَّتْ بحمل بطانية وكوبٍ من القهوة الساخنة وطلبت إذن والدتها التي وافقت على مضضٍ على أن تنزل صغيرتها إلى ذلك المسكين.

وصلت (رنيم) إلى مكانها المنشود، أخذ الشيخ منها ما أحضرت على غير عادته فهو لا يقبل شيئًا من أحد. أراحها ذلك جدًّا فاستجمعتْ كلَّ ما تملك من جرأة وجلست قبالتَه، نظر إليها مستغربا وقال: "ألا تخافين؟".

هزَّت رأسَها نافية وقالت: "ولم عساي أفعل؟".

أردف قائلا: "لا أدري، تعلمين أنا المجنون .. يبدع كل أحد هنا في تأليف القصص المخيفة عني لعل أطفالَه يخلدون إلى النوم باكرا"، قاطعته (رنيم): "لا يا سيدي، لا أصدق أيا منها".

ابتسم الشيخ في هدوء، خيَّمَ سكونٌ مريبٌ لم يلبثْ أن قطعه بقوله: "كانت لدي عائلة أتعلمين؟، كانت عندي فتاة في مثل عمرك آنذاك -نظرت إليه وابتسمت كأنها تحثه على أن يقول المزيد- كنت موظَّفًا في أحد البنوك الكبرى، كنت متزوجا وعندي ٣ أطفال؛ بنت وولدان، شاءت الظروف أن أمر بفترةٍ ماديةٍ عسيرةٍ، حثتني زوجتي حينها على اختلاس مبلغ من البنك لنحسن أوضاعَنا ونطعم أطفالنا، زَيَّنَ الشيطان الأمر في نفسي ومع استمرار زوجتي في

طمئنتي أنه لن يعلم بالأمر أحد، رضخت لذلك ولكنني لم أكتف بالمرة الواحدة ولا بالمرتين ولا بالثلاث، استمررت متناسيًا حقيقة ما أنا بفاعل، كنت أعيش في حلم جميل؛ مال وسيارات وقصور إلى أن استيقظت فجأة في زنزانة عفنة وكان قد فات الأوان. أمضيتُ فترةَ السجن وأنا أعضّ أصابعي ندمًا، وبعد انقضائها خرجتُ إلى كابوس أكبر؛ كان قد تبرأ مني كل من يعرفني، تَزَوَّجَتْ من كانت زوجتي، حُرمت من أطفالي وها أنا ذا أمضي ما تبقى من حياتي بدون مأوى عاريًا من التعريف ينهشني الندم وتسوطني ألسنة الناس لتزيد ألمي ألما.

لم تنبس (رنيم) ببنت شفة، خشيت أن تخرج كلماتها مليئة بالشفقة فتجرح أكثر من أن تواسي، اكتفت بطأطأةِ رأسِها أسفًا على حاله وعادت أدراجها إلى المنزل شاردة الذهن، استلقت على سريرها، أمسكت دفتر يومياتها وخطت بخط عريض: "قد لا يكونون أبرياء، ولكنهم ليسوا دومًا بالسوء الذي نظن"!

obeikandl.com